خطبة: الحكم الرشيد للحاكم الراشد ٢

الخطيب : يحيى العقيلي

معاشر المؤمنين

تحدثنا في خطبة سابقة عن خلافة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ورضي عنه ، والتي كانت أعجوبةً من أعاجيب الزمان ، في تحقيق الاصلاح بعد الفساد ، وترسيخِ العدل بعد الظلم ، وتحقيق الرخاء بعد الشدة ،في زمنٍ يعتبر في اعمار الأمم من المعجزات ، كل ذاك تحقق في عامين وبضعة شهور ، فكيف تحقق له ذلك ؟

لقد كانت عناية الله تعالى لعمر أساسَ التوفيق وقاعدةَ النجاح ، وذلك لِما عمّر الله قلبه من تقواه وخشيته له سبحانه، ولما علمه من زهده وورعه ، فقد كان وقّافا عند كتاب الله تعالى مقتفيا هدي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو منهجُ الفلاح والنجاح ، قال تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \* الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ \* لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[يونس: 62 - 64]

وبالتأمل في أسباب ذلك الفلاح في خلافته نجد انها تتمثل أولا في عمقِ فهمه لحقيقة الخلافة والسلطة ،ودقةِ شعوره وإحساسه بالأمانة والمسؤولية أمام الله عز وحل ، لم تكن الخلافةُ عنده مغنما وجاها وسلطانا ،بل أمانةً ثقيلة ومسؤوليةً عظيمة ،

تقول زوجته فاطمةُ بنت عبدالملك : "دخلت عليه يومًا وهو جالس في مصلّاه واضعًا خده على يده، ودموعه تسيل على خديه، فقالت: ما لك؟

قال: ويحك يا فاطمة، لقد وُلِّيت من أمر هذه الأمة ما وُلّيت، فتفكرت في الفقير الجائع، والمظلوم المقهور، والغريب الأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، وذي المال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن الله –عز وجل- سيسألني عنهم يوم القيامة، وأن خصمي دونهم محمد –صلى الله عليه وسلم-، فخشيت ألا يثبت لي حجةٌ عند خصومته فرحمت نفسي وبكيت"

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله " ياعَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ سَمُرَةَ، لا تَسْأَلِ الإمارَةَ؛ فإنَّكَ إنْ أُوتِيتَها عن مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إلَيْها، وإنْ أُوتِيتَها مِن غيرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عليها، .." (البخاري)

ثم ثانيا أخذه بالعدلِ سياسةً صارمةً على نفسه واهله وعياله وأقربائه اولا ثم على ولاته والعاملين تحترايته ، وذلك استجابة لأمر الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْتَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: 58].

وثالث أسباب ذلك التوفيق أن عمرَ رحمه الله قد أحاط نفسه بالثقات، من الفقهاء والعلماء فكانوا هم بطانته وأهل مشورته ، كما كان الأمناءُ الأقوياء هم أهل ولايته ووزارته ،

فقد أزاح اهل الفساد والظلم وولّى أهلَ التقوى والعلم ،،

قال لجلسائه مرةً :

" والله إني لأشتري ليلة من ليالي عبيد الله ( يقصد بن عبدالله بن عتبة بن مسعود احد الفقهاء السبعة في المدينة ) بألف دينار من بيت المال، فقالوا يا أمير المؤمنين: تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك؟ فقال: أين يُذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه، وبنصيحته، وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف، إن في المحادثة تلقيحا للعقل، وترويحا للقلب، وتسريحا للهم، وتنقيحا للأدب."

يهتدي بذلك بما أمر الله تعالى نبّيه صلى الله عليه وسلم " وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَهَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28)

وفقنا الله لما يحب ويرضى ، وأعاننا على البّر والتقوى ، أقول ماتسمعون وأستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم

معاشر المؤمنين

ومن أسباب نجاح عمر بن عبدالعزيز رحمه الله ورضي عنه في خلافته : أنه انتهج سيرة الخلفاء الراشد ينقبله ، فلقد أرسل إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب يقول له : " إن الله تعالى ابتلاني بما ابتلاني بهمن هذا الأمر من غير مشورةٍ ولا طلبٍ له، ولكن كان ما قدّر الله تعالى ، فأسأل الله الذي ابتلاني أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث إليَّ بكتبِ عمرَ بن الخطاب وقضائهِ وسيرته في أهل العهد وأهل الذمة، فإني متبعٌ أثره، وسائر بسيرته، إن أعانني الله على ذلك،"

وهكذا عمل بما أمر الله تعالى نبّيه صلى الله عليه وسلم من الإقتداء بسلفه من الأنبياء ، فقال سبحانه "أُولَٰئِكَا لَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ۗ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (90)

تلكم عباد الله سيرةٌ عطرةٌ لحاكمٍ من حكام المسلمين وقائدٍ من قادتها ، كانت خلافتُه حُجةً ومنهجاً لكل حاكمٍ ينشد الاصلاح وقدوةً لكل من ينشد الفلاح .